

التاريخ في سيرة أبطال

ابراهيم لنكولن

هجرة الامم الى عالم المدنية
للأستاذ محمود الخفيفيا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في سيرة
الأعلى من سيرة هذا المصافي العظيم

- ١٥ -

واتخذ دوجلاس للأمر عدته ، لم يدع وسيلة أو يغفل عن
حيلة ، أما ابراهيم فلم تكن به حاجة إلى ما يحتال به من أساليب
التأثير المتكلفة الخادعة ، فما هو إلا أن ينصت له الجميع حتى يثبت
اليقين ما قر في نفسه فيحرك به لسانه فاذا هو كالنهر الحادر
يفهم بما لا يفتأ يواتيه به النبع ، ويجيش بهذا الفيض ويهدر ،
ويتدفق لا يصد عنه وجهه شيء ...

وكان لدوجلاس من بعد الصيت ما جعل اسمه ملء الأسماع
في طول البلاد وعرضها ؛ وكان في رأى الأمر بكيين أقدر رجال
حزبه وأكثرهم فطنة وأطولهم في السياسة باعاً وأقوامهم بمصاعبها
اضطلاعاً ، بل لقد كان عند الكثيرين من ذوى الرأى أعظم
رجال أمريكا كفاية وأعلامهم كعباً وأعزهم مكانة ، وكان يلقب
« بالمارد الصغير » أن كان له على صغر جرمه وقصر قامته قوة
المارد وسلطان المارد ودهاء المارد ، وكانت له حيوية غريبة تنقطع
دونها حيوية الرجال ، وتتقاصر عنها همهم . والحق لقد كان
دوجلاس يومئذ أنبه الناس شأناً وأعزهم نفراً وهو من عهد
قريب لم يكن يسمع به أحد خارج الينواس

لذلك كان للناس عجباً أن يطاوله ابراهيم وأن يدعوهم إلى زوال .
وأخذ من لم يكن يعرفه منهم هذا القمل من جانبه على
أنه ضرب من الفرور أو نوع من الغفلة ، ولو أنهم عرفوا دخيلة
صاحبهم الذى افتتنوا به وتبدنوا ما هجس في نفسه من الخواطر
إزاء هذا التحدى الجريء لا يفتنوا أن جبروت ماردتهم وأساليبه
ما كانت لتغنى عنه شيئاً من هذا العملاق الذى درج من الناية
ليقف أمامه كائنه السنيانة !

وكانت أثاراً أولى المدن السبع التى اختيرت ميادين لذلك
الصراع ؛ وقد جاءها الناس ليشهدوا ما لم تقع عليه من قبل
أبصارهم أو تتعلق به أوهامهم ، وقد اتفق أن يكون الكلام
أول الأمر لدوجلاس فيخطب الجمع ساعة ، ثم يعطى من بعده
ابراهيم ساعة ونصف ساعة ؛ ويختتم دوجلاس هذا الدور بعده
بحديث يستغرق نصف ساعة

وكان دوجلاس في انتقاله بين المدن في ألبينواس يتخذ مركبة
نخعة يجرها ستة من كرايم الخيل ، وحوله ثلة من الفرسان يتريد
بهم من الهية والأبهة ؛ وكان إذا دخل مدينة من المدن يقف
في مركبته وقد تكلف أكثر ما يطيق من الصرامة فما يكاد
يلحظ الناس ويقبلون عليه مصفقين مهللين حتى تنقلب صرامته
وسامة فيجني الجروع يديه وإيماءاته وإبتساماته ، ويلتفت لهذا
ويهش لذلك كأنه ملك يتدلى من عليائه ليطالع على شعبه ،
وإذا هو حل بقوم أو سار إليه قوم عرف كيف يوحى إليهم
تبجيله والاحجاب به ، فهو بين الصلف وخفض الجناح ، وبين
الاحتشام والتبذل بحبي وجوهمهم وكبراءهم وينعمهم بنعمة منه وفضل
أما لنكولن فكان ينتقل بين الناس كأحدهم ؛ وكثيراً ما
يكون دون بعضهم ، فإذا أخذ مكانه في قطار أو في مركبة عامة
مزدحمة كان بين ركابها كما كان بين الناس في نيو سالم حين كان
يدبر الحانوت أو حين كان يوزع البريد يتبسط لهم في القول
ويسترسل معهم في شتى الأحاديث ، ويقص عليهم من قصصه ،
وإن له في هذا كله لتناعاً ولذة لن يحسها إلا من كان له مثل قلبه
والتي الرجال في أناوا ؛ واحتشد الناس في الموعد المضروب
فضاق بهم مكان الاجتماع ؛ وحانت ساعة الكلام ، فوثب المارد
الصغير إلى موضع مرتفع أطل منه على الناس فتمزقت بالتصفيق
أكف أنصاره وتشقت بالهتاف حناجرهم ، وهو يرسل نظراته
في جنبات المكان ويوزع إيماءاته هناك ، وهنا ، حتى سكنت
ريحهم فبدأ الكلام ...

وكان يومئذ في الخامسة والأربعين ، بادي النسوة مرموق
الشباب يتلجل وجهه لولا كدرة طفيفة هى مما فعلته به ابنة
العنقود وسكنى المدن ولكنها كدرة كانت تنفث حين تلهب
بالخامة وجنتاه ؛ وكان في موقفه بارز الصدر قوى الكتفين

تنجيه نظرات الإكبار إلى رأسه الضخم فما تلبث أن تلتقي بعينيهِ الرقاوين السريمتين فترتد حائرة كأنما غشيت من ضوء وهاج، وكانت تفتن الأنظار أمانة ملبسه ونظام هندامه، كما كانت تسحرها لفتاته وحركاته كأنما كانت تقع الأبصار منه على ممثل قدير عرف سبيله إلى قلوب محبيه فهو يحرص ألا ينحرف قيد شعرة عما يشيع في نفوسهم السحر من مظهره...

وتكلم دو جلاس فكان في كلامه نبت الجنان زلق اللسان وكانت له في هذا الاجتماع خطة بالغ في إحكامها وتسديد خطاها، ومؤداها أن يرى لنكولن والتشيعيين له بأنهم من المتطرفين الذين يريدون حل مسألة العبيد بالقوة، ثم يحمل على بقية رجال الحزب الجمهوري فيرميهم بالتذبذب... وراح يخطو في سبيل ذلك خطوات؛ فيتحمس ويمار بصوته ويكثر من الإشارات، ولكنه كان يسمو بمباراته أحياناً فلا ترقى إليها أفهام الكثيرين؛ على أنه كان له من جاهه ونفوذه وهيئته في قلوب الجماهير عوض عن ذلك، فحسبهم أنهم يستمعون إلى ذلك الذي بات يتحدث باسمه كل إنسان، حسبهم أنهم يستمعون إلى دو جلاس السياسي الأشهر ورجل الثورة العزيز الجانب، وإن في كثير من النفوس البشرية لما يميل بها من غرائزها إلى الخضوع للسلطان والانتقياد لكل ما يشير به ولو كان مما هو جدير أن يقابل بالمصيان

وجاء دور إبراهيم فطلع على الناس بقامته الطويلة فهتف باسمه أنصاره وتحمسوا له، وانجذبت إليه الأنظار وإنه ليدرك كأنما أخذته من الموقف ربكة فليس له تطلع دو جلاس وتحفزه، ونظر الناس إلى شعره الأشعث وإلى ملابسه التهذلية وخاصة إلى سرواله الذي يقصر عن ساقيه فيكشف عن جزء منها، وقارنوا دون أن يشمروا بين تلك الملابس وبين حلة دو جلاس الأنيقة فبدت أكثر حقارة مما هي عليه، وكانت تستقر الألباظ برهة على محياه وقد ازدادت مسحة الهم فيه وضوحاً، وبدأ عليه ما يشبه السكنة والانكسار.. ولكن الناس على الرغم من ذلك يرتاحون إلى مظهر ذلك المحيا ويشمرون نحوه بالحب.

ويبدأ الخطيب في صوت أجش تتخلله حشرجة ثقيلة؛ ثم ما هي إلا برهة حتى تنطلق نغمه على سجيته، فإذا ذلك الهيا

يتهازل ويشرق وتشكل أساريره بما يهيجس في خاطره، وإذا تلك العينان الواسعتان المتسائلتان تنفتان بسحرهما إلى أعماق القلوب، وإذا الرجل يبدو في هيئة يتقاصر عن وصفها لفظ الجمال. وتتفتح مسالك صوته فينطلق رائقاً له رنين بتشكيل حسبما يمر عنه من المعاني، وكان يملو صوته إذا فحس فيدوى في أرجاء المكان

وينساب السيل لا يصدده عن وجهه شيء ولا غشي في صفائه كدرة على تدفقه وجيشانه؛ والناس مفتونون وإن هم لم يفتنوا على وجه التحديد إلى سرفنتهم، فهم مأخوذون بما يسمعون عن أن يفكروا أو يحللوا؛ وإنهم لفي سكرة أشبه بما يجدون أنفسهم فيه عند إصغائهم إلى لحن من تلك الألحان التي تسحر الأنفس وتملك الأبواب

تدافعت إلى ذهنه الألفاظ وتراحت عليه المعاني وقد أسفرت عن وجوهها ومشت إلى غايتها في غير تخرج أو التواء؛ ولقد برزت في ذلك اليوم مواهبه على أتمها فكان له ما شاء من سهولة اللفظ مع بلاغته ودقة المنطق مع سلامته؛ هذا إلى يقين بنفث في قوله الحرارة؛ وتتمكن يذيع فيه الروعة؛ وأمثلة يسوقها من الحياة المادية فتستقر في قلوب سامعيه ومعظمهم من عامة الناس ومن وراء ذلك العبقرية التي تستمضي على التحليل وتسمو على التأويل...

ونزل لنكولن وله في قلوب السامعين من أنصاره وخصومه مكانة غير ما كان له قبل من مكانته، فلقد استطاع أن يقنعهم، كما استطاع أن يشمرهم بما هو أقوى من الاقتناع وأبعد أنراً ألا وهو الإعجاب؛ وإنهم ليتها مسون بعضهم إلى بعض قائلين: ليت لسادتنا وكبرائنا قلوباً مثل قلب ذلك الرجل... مثل قلب أيب الأمين...

وتكلم دو جلاس بعد ذلك مسافة نصف ساعة أعلن بعدها أن الاجتماع الثاني سوف يكون في فريبورت ولقد ارتكب دو جلاس من الخطأ في هذا الاجتماع الأول ما عد عليه أنه أغش أخطائه في ذلك الجدل؛ وذلك أنه أبرز مكتوباً موقفاً عليه باسم لنكولن يفهم منه أن إبراهيم من زعماء المتطرفين؛ ولكن سرعان ما أقام إبراهيم في دوره الدليل على أنه

وأحسن دوجلاس مهارة الرمية وقوة الاصابة فراح يرد على رمية برمية، وعاد فانهم لنكولن والحزب الجمهوري أنهم من دعاة الثورة وأنهم يدفعون البلاد إلى الدمار ...

ولكن لنكولن جعل الاجتماع السادس لتحديد مذهب الحزب الجمهوري فقال في جلاء : إن الجمهوريين هم أولئك الذين يعتبرون نظام العبيد خطأ من النواحي الخلقية والاجتماعية والسياسية ؛ ولكنهم يتمسكون بدستور الاتحاد ويسرون في تحقيق أغراضهم على نهجه ؛ أما الذين لا يرون عيباً في نظام العبيد فهم الديموقراطيون ؛ وهم ليسوا من الجمهوريين في شيء ... لذلك ليس من الجمهوريين من لا يباون بالدستور في موقفهم من نظام العبيد مهما بلغ من مقبهم لذلك النظام ...

وحار دوجلاس ماذا يفعل أمام تلك القوة وأمام ذلك الوضوح الذي لا يدع مجالاً لستريب فأخذ يداي ويبحث وقد تشعلب بعد ما سبق أن استأسد

وضيق لنكولن عليه الخناق فطلب إليه أن يجيب على هذا السؤال البسيط في غير مداواة « أيعتبر نظام العبيد صواباً أم خطأ ؟ » وازدادت حيرة المارد الصغير وأحس أنه على جبروته يتلوى في قبضة ذلك العملاق وكأنه أمامه جذع من تلك الجذوع التي ما كانت تقوى على فأسه مهما بلغ من متانتها يوم كان يضرب بفأسه في الغابة قبل أن يعرف كيف يضرب بقلعه أو بلسانه

وعجب الناس لهذا الرجل الذي لا يرى نظيره في الرجال ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : ماذا دعى المارد الصغير ؟ وكيف تسمى لابن سبرنجفيلد المتواضع الذي لم يعرف سلطاناً ولا جاهاً أن يأخذ الطريق هكذا على ابن وشنجنطون الجبار المدل بماله ومنمته ونفوذه ؟

ولكن هاجساً بهجس في ضائرتهم أن للحق سلطاناً دونه كل سلطان ، وعزة يستخذي أمامها كل اعتزاز ، ومنمة ترتدعها كل طاولة ؛ وأن الباطل مهما تنمر واستمدى على الحق من أساليب بهتانه وألاعيب مكره ، لا يكون منه إلا كما يكون الليل من وجه الصباح ...

وأدرك الناس أن خير خادم للناس من يدرج من بينهم فيحس

زائف وأنه مما جاء فيه براء . وكانت لطمعة قوية استخذي لها دوجلاس في ساي منزله ، وفقد بمداهمة الكثيرين ...

وحل موعد الاجتماع الثاني فتسابق الناس إليه أفواجا وقد اشتهر أمر ذلك الصراع إذ لم تبق صحيفة إلا وقد أسهبت في الحديث عنه ؛ وفي هذا الاجتماع طعن لنكولن خصمه تلك الطعنة التي سلفت الاشارة إليها ؛ فلقد أعد له سؤالاً يلقيه عليه : إذا أرادت ولاية أن تلغي نظام العبيد فيها فهل هي مستطيعه أن تفعل ذلك دون أي حرج ؟ ولقد أنكر عليه أنصاره هذا السؤال إذ لم يفهموا الفرض الذي يرى إليه منه ، وهو يعلم أن دوجلاس سيجيبه : بلى تستطيع الولاية ذلك . فقال لهم ولكنه بذلك يفقد عطف أنصار مبدأ التمسك بالعبيد من أهل الجنوب فلا يمنحونه أصواتهم إذا هو تطلع للرئاسة ؛ ولما يضير لنكولن أن يظفر دوجلاس اليوم بمقعد في مجلس الشيوخ

ووجه لنكولن السؤال إلى دوجلاس فأجاب بقوله « نعم تستطيع الولاية أن تفعل ذلك في غير حرج » ؛ وفرح لنكولن بتلك الاجابة التي يعلم أنها ستغفر أهل الجنوب منه . ولقد أيدت الأيام رأيه وبرهنت على بعد نظره . ومما قاله لنكولن في ذلك « إن دوجلاس لينبئه عدد كبير من العميان ، وإني أريد أن أجمل بعض هؤلاء بمصرون »

وفي الاجتماعين الثالث والرابع لم يأت كلاهما بشيء جديد ؛ وإنما اجتهد لنكولن أن يدفع عن نفسه ما رماه به خصمه من الاتهامات ؛ وخرج لنكولن من هذين الاجتماعين وقد أضاف إلى أنصاره أنصاراً جديدين ...

وفي الخامس من هاتيك الاجتماعات اتخذ لنكولن خطة الهجوم ، بعد أن أخذ ينشر خصمه ويطويه في الاجتماعين الماضيين حتى دوّخه ، وكان هجومه تلك المرة شديداً ، ضاق به دوجلاس وانمخلع عنه مكره ؛ عاب عليه إبراهيم أنه لا يحفل بالاعتبار الخلقى من مسألة العبيد ، مع أن هذا الاعتبار بعد الخروج على اتفاق مسورى ، هو السبيل الوحيد الذي يوصل عليه في منع انتشار العبيد ؛ وعلى ذلك يكون دوجلاس داعية إلى أن تصبح مسألة العبيد مسألة قومية عامة لا تخرج منها ولا تأثم فيها ...